ISSN 2735-4822 (Online) \ ISSN 2735-4814 (print)

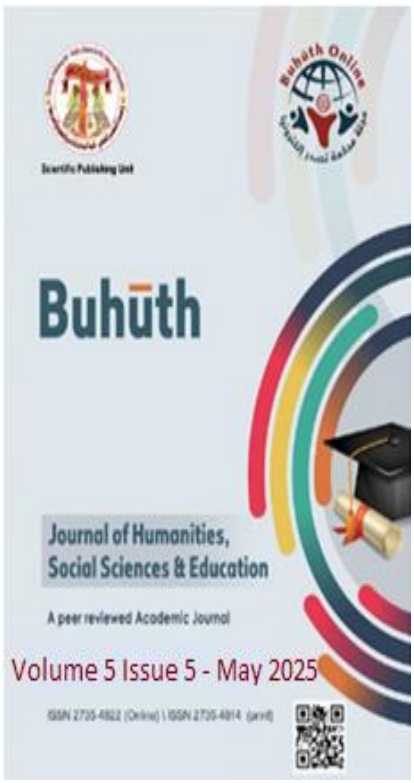

Al-Jabarti's narration of the castle massacre
A Linguistic Study of Identifying the Event and the Actors in Historical Discourse

Master. *Elzahraa MohammSed Mahmoud*
Department of Arabic language, Faculty of Al-Alsun, Ain Shams University, Egypt
Elzahraa.M.Mahmoud@alsun.asu.edu.eg
Prof. Eman El-Said Galal
Department of Arabic language, Faculty of Al-Alsun, Ain Shams University, Egypt
imansaidgalal@hotmail.com
Asst.Prof. Nourhan Abdel-Raouf Ahmad
Department of Arabic language, Faculty of Al-Alsun, Ain Shams University, Egypt
nourhanabdelraouf@alsun.asu.edu.eg

Receive Date: 13 June 2024, Revise Date: 17 July 2024.
Accept Date: 19 July 2024.
DOI: 10.21608/BUHUTH.2024.297380.1709
Volume 5 Issue 5 (2025) Pp.283 -307.

Abstract

This study aims to analyze the discursive identifying of historical event and actors in historical discourse, through the narration of the Massacre of the Mamluks at the Cairo Citadel, as stated in ʿAjāʾibul-ʾāṯar of the Egyptian historian Abd al-Rahman al-Jabarti. The study initially provides a historical background summarizing the relations that linked the main characters included in that incident, which can explain some of what Al-Jabarti narrates in one way or another. The study is divided into two main parts: the first of which focuses on the linguistic means Al-Jabarti employed during his presentation of the main social actors in Egypt at that era, especially Muhammad Ali Pasha, his soldiers, and the most important Mamluks. The second part focuses on the linguistic means he used to shape the sub-events contained in the Citadel Massacre. Through this analysis, the study aims to show how ideology influences the historian's thinking, and then his presentation of the historical events and actors. The study makes use of the approach of Theo van Leeuwen to critical discourse analysis and of the linguistic process types identified by Michael Halliday.

***Keywords*:** Al-Jabarti, Mohammed Ali, Critical Discourse Analysis, Mamluks, Citadel Massacre.

رواية الجبرتي لمذبحة القلعة
دراسة لغوية لتعيين الحدث والفاعلين في الخطاب التاريخي

الزهراء محمد محمود علي
باحث ماجيستير-قسم اللغة العربية

كلية الألسن، جامعة عين شمس، مصر

Elzahraa.M.Mahmoud@alsun.asu.edu.eg

أ.د إيمان السعيد جلال
كلية الألسن، جامعة عين شمس، مصر
imansaidgalal@hotmail.com

أ.م .د نورهان عبد الرءوف أحمد
كلية الألسن، جامعة عين شمس، مصر
nourhanabdelraouf@alsun.asu.edu.eg

المستخلص:

تعد هذه الدراسة محاولة لتحليل التعيين الخطابي للحدث التاريخي وفاعِليه في الخطاب التاريخي، من خلال رواية المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي لمذبحة القلعة في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار". وتقدم الدراسة في البداية خلفية تاريخية تُوجز فيها العلاقات التي ربطت بين الشخصيات الرئيسة التي تضمنتها تلك الحادثة بما يسهم في تفسير بعض ما يرويه الجبرتي بطريقة بعينها. ترتكز الدراسة على محورين أساسيين، أولهما يختص بتحليل الوسائل اللغوية التي وظفها الجبرتي أثناء تقديمه للفاعلين الاجتماعيين، لا سيما الشخصيات الفاعلة التي كانت تملك زمام الأمور في مصر في ذلك العصر، وهم الوالي محمد علي باشا، ورجاله، وأبرز قادة المماليك. وثانيهما يختص ببيان الطرائق اللغوية التي سلكها في خضم تشكيله للأحداث الفرعية التي حوتها مذبحة القلعة. وتروم الدراسة من وراء هذا التحليل بيان كيفية تأثير الأيديولوجيا في عقلية المؤرخ بما ينتج عنه التأثير في تقديمه للحدث التاريخي، ويتم ذلك من خلال فحص الوسائل اللغوية التي تعكس موقف الكاتب مما يرويه من أحداث وما يتناوله من شخصيات. تنتمي هذه الدراسة إلى دراسات التحليل النقدي للخطاب، وتستعين خاصة بما شرحه ثيو فان ليفان من محددات لغوية يمكن الارتكاز عليها أثناء تعيين الفاعلين الاجتماعيين، كما تعتمد الدراسة في استعراضها للأحداث التي صاحبت مذبحة القلعة على تصنيف هاليداي للعمليات اللغوية.

الكلمات المفتاحية: الجبرتي، محمد علي، التحليل النقدي للخطاب، المماليك، مذبحة القلعة.

المقدمة:

تُعَدُّ اللغة الركيزة الأساسية التي تعين الأفراد على فهم مكنونات خطابات الآخرين أو تحليل رؤيتهم حول مختلف الأمور، ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة بوصفها محاولة للوقوف على رؤية المؤرخ المصري عبد الرحمن بن حسن الجبرتي لمذبحة القلعة التي ضمنها في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار".

وتنطلق الدراسة من منظور التحليل النقدي للخطاب بهدف بحث الوسائل اللغوية التي وظفها الجبرتي في التعيين الخطابي للفاعلين الاجتماعيين في هذا الحدث، كما تسعى إلى محاولة الكشف عن الوسائل اللغوية الأخرى التي استعملها بغية تشكيل الأحداث الجزئية المتضمنة داخل حدث مذبحة القلعة.

وتبدأ الدراسة بإبراز خلفية تاريخية تُلخص فيها علاقة الأطراف الفاعلة في المجتمع المصري في ذلك الوقت بعضها ببعض، وذلك انطلاقًا من أنه من المهم بمكان الاستناد إلى الخلفيات التاريخية التي تسهم في كشف الستار عن بعض ما قد يبدو غامضًا للقارئ أثناء سرد الأحداث التاريخية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في الرغبة في إبراز الدور الذي تقوم به اللغة في بيان الوقائع التاريخية وتشكيل المواقف من أطرافها، وذلك من خلال ما تمتلكه اللغة من وسائل وإمكانيات تعبيرية يمكن أن تجعلها سلاحًا موجهًا لنقد أحداث أو وقائع تاريخية، فضلًا عن محاولة معرفة كيفية تأثير الأيديولوجيا في المواقف التي تُتخذ تجاه الأطراف الفاعلة في الأحداث التاريخية التي يرويها الكاتب بطريقته.

أما بالنسبة إلى الدراسات السابقة فما تزال الدراسات العربية في مجال التحليل النقدي للخطاب ليست بالكثيرة، ولكن هناك بعض الدراسات التي تناولت نصوصًا من الخطاب التاريخي وأخضعتها لأنماط أخرى من التحليل اللغوي والخطابي، من هذه الدراسات على سبيل المثال:

- "معركة الريدانية كما رواها ابن إياس: دراسة لغوية في ضوء نظرية التقييم"، منال جمال محمود، أبحاث مؤتمر "التراث العربي- قراءة جديدة"، جامعة القاهرة- كلية الآداب- قسم اللغة العربية وآدابها، مج2، 2015.
- "لغة الخطاب التاريخي من القرن الثالث إلى القرن الثامن الهجري (دراسة استقرائية تحليلية)"، عبد الله شعف عماش الحربي، مجلة الدراسات العربية، جامعة المنيا، مج43، ع3، يناير 2021.

وهناك دراسات أخرى ركزت في تناولها لكتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" على بيان منهج التأريخ فيه أو إبراز قيمته التاريخية، وذلك مثل:

- "الفكر التاريخي للجبرتي من خلال كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، مالك محمد أحمد رشوان، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بأسيوط، ع8، 1988.

التمهيد

التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis:

التحليل النقدي للخطاب هو تَوجُّه في تحليل الخطاب يتركز جُل اهتمامه على تحليل علاقات السلطة والتحكم والتمييز كما تظهر من خلال الاستخدامات اللغوية، كما يقوم على فحص أسباب عدم المساواة الاجتماعية بين أطراف الخطاب التي يُعبَّر عنها وتُضفى الشرعية عليها (فوداك و ماير، 2014، صفحة 34).

ويمتاز التحليل النقدي للخطاب بعدم اقتصاره على تحليل السياقات اللغوية والنصية المحدودة، بل يتجاوز ذلك إلى تحليل السياقات الاجتماعية المهيمنة (مزيد، 2010، صفحة 105)، وذلك فضلًا عن أنه يتخلص من "البراءة" التي قد تبدو في التداولية؛ وذلك لأنها قد تتجاهل السياقات الاجتماعية والسياسية التي أُنتجت فيها الخطابات والنصوص، بعكس التحليل النقدي للخطاب الذي يهتم بتحليل تلك السياقات (مزيد، 2010، صفحة 105).

ويجدر الإشارة إلى أن الدراسة تستند في تناولها لتعيين الجبرتي للفاعلين الاجتماعيين في مذبحة القلعة إلى ما أوضحه ثيو فان ليفان Theo van Leeuwen من تقنيات التسمية التي يمكن استعمالها أثناء تعيين الفاعلين الاجتماعيين، كما تستعين الدراسة في استعراض تعيين الجبرتي للأحداث الجزئية التي حوتها مذبحة القلعة بتصنيف هاليداي M. A. K. Halliday للعمليات اللغوية، وبالتحديد العمليات التلفظية والمادية والسلوكية والوجدانية.

مُرسِل الخطاب:

التعريف بالجبرتي:

ولد عبد الرحمن بن حسن الجبرتي عام ١٧٥٤م (١١٦٧ هـ)، وعندما أتم حفظ القرآن الكريم ألحقه والده بالأزهر حتى يتعلم العلوم الشرعية واللغوية (علي، 1998، صفحة 17)، وقد نشأ في بيئة علمية أسهمت في تكوين ثقافته؛ فقد كان والده أحد علماء الأزهر ويهتم في الوقت ذاته بالعلوم الرياضية والفلك، وإلى جانب والده فقد تتلمذ على يد علماء عصره خاصة الشيخ مرتضى الزبيدي (ت: ١٢٠٥ هـ) صاحب "تاج العروس في شرح القاموس" (الرافعي، 1929، صفحة 458).

وتبرز مكانته الاجتماعية التي مكنته من أن يكون ذا ثقل اجتماعي من خلال انتمائه لطبقة العلماء والمشايخ التي كانت تحظى بتأييد من العامة، فضلًا عن علاقته ببعض الممسكين بزمام الأمور في الدولة؛ فقد كانت هناك علاقة طيبة بين أبيه وأجداده من جهة والمماليك من جهة، بالإضافة إلى علاقته بالسلطان العثماني وكبار رجال الدولة العثمانية في ذلك الوقت (الخليف، مصداقية الجبرتي وموضوعيته التاريخية في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 2004، الصفحات 119- 120).

ويُعَد كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" أشهر كتب الجبرتي، وقد عُرف بـ"تاريخ الجبرتي"، وقد ضمن الجبرتي في هذا الكتاب حوادث مصر مُسهبًا في بعضها ومُجملًا في بعضها الآخر، كما أورد في كتابه بعض التراجم للأعيان المشهورين في ذلك الوقت (علي، 1998، صفحة 21).

أما وفاة الجبرتي فيذكر أن هناك اختلافًا بين الرواة حول تاريخها (الرافعي، 1929، صفحة 461)، وقد توفي – على أرجح الأقوال – عام ١٨٢٥م (١٢٤١ هـ)، وذُكر أنه مات مقتولًا واحترقت مكتبته وبعض مؤلفاته (الشرقاوي، 1955) (هيئة التحرير، 1962) (علي، 1998).

قبل الخوض في بيان رؤية الجبرتي لمذبحة القلعة ينبغي الاستناد إلى بعض معلومات السياق التاريخي لإنتاج الخطاب التي تسهم في تفسير كثير من المواقف التي قد تبدو غير واضحة. ولذلك ستعرض الدراسة موجزًا لعلاقة محمد علي بالمماليك، ثم علاقة الجبرتي بالمماليك، ثم علاقة الجبرتي بمحمد علي، وهذا فيما يلي:

أولًا: علاقة محمد علي[1] بالمماليك:

كان محمد علي قبل توليه حكم مصر على دراية بالصراع القائم بين القوى الثلاث: المماليك والأتراك والإنجليز على السلطة في مصر (الشيال، 1951، صفحة 5)، ولذلك كان يفكر في كيفية تثبيت دعائم حكمه من خلال التعامل مع هذه القوى بما يناسب كل منها. وفيما يخص علاقته بالمماليك فلم تكن علاقة محمد علي بالمماليك على ما يرام، بل كانت علاقة يشوبها التنافس المستمر والصراع الدائم على السلطة، فكان محمد علي عازمًا على التخلص منهم لأنه يعلم أنهم سيستمرون في مناوأته ومنازعته الحكم ولن يستقر له الأمر إلا بالقضاء عليهم (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، صفحة 104)، ولذلك رتب لهم ما عُرف تاريخيًا باسم (مذبحة القلعة).

فقد بدأ محمد علي بتجهيز حملة للقضاء على الحركة الوهابية في الحجاز، وذلك بأمر من الحكومة التركية، وجعل ابنه طوسون باشا[2] قائدًا لتلك الحملة، محددًا يوم الجمعة الموافق الأول من مارس عام ١٨١١م (١٢٢٦ هـ) للاحتفال بإلباس ابنه خلعة القيادة (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، صفحة 108)، ودعا كبار رجال الدولة – بما فيهم المماليك – لحضور هذا الحفل (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، صفحة 109)، وبالفعل لبى المماليك دعوة محمد علي وحضروا إلى القلعة في اليوم المحدد للاحتفال. ويُشار إلى أن عدد مَن دعاهم محمد علي لهذا الحفل قد بلغ ما يزيد عن عشرة آلاف شخص من كبار رجال الدولة (كفافي، 1992، صفحة 162).

[1] . محمد علي: يُعَد أحد أشهر حكام مصر في العصر الحديث، وتقلد حكم مصر في ١٣ مايو عام ١٨٠٥م بناءً على رغبة زعماء الشعب في ذلك الوقت، وقد كان مصابًا بمرض العضال وتوفي عام ١٨٤٩م (الرافعي، عصر محمد علي، ١٩٨٩، صفحة ٢٧، ٥٧٣).

[2] . طوسون باشا: هو أحد أبناء محمد علي، وقد تولى قيادة عدة حملات لمحاربة الوهابيين في الحجاز، وتوفي عام ١٨١٦م بسبب مرض أصابه فجأة، ولم يكن يتجاوز العشرين من عمره عند وفاته، وقد حزن محمد علي حزنًا شديدًا لفقده ابنه (الرافعي، عصر محمد علي، ١٩٨٩، صفحة ١٤٣).

وكان من المقرر أن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة ثم ينزل من قصره بالقلعة متجهًا بموكبه الفخم إلى خارجها عبر باب العزب[1]، ثم يتجول بموكبه في أهم شوارع القاهرة إلى أن يصل إلى معسكر الحملة المعدة لمحاربة الوهابيين (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، صفحة 108). وقد تحرك موكب طوسون باشا يتقدمه الفرسان ويتبعهم والي الشرطة ثم مجموعة من الجنود الأرناءود[2]، ثم المماليك ويأتي بعدهم المجموعة الباقية من الجنود الأرناءود (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، الصفحات 109- 110)، وما إن اجتازت طليعة الموكب باب العزب حتى أُغلق هذا الباب من الخارج فجأة إغلاقًا محكمًا في وجه المماليك، وكان الجنود الأرناءود من ورائهم يعلمون أن إغلاق الباب إشارة لهم ببدء القضاء على المماليك، فاتخذ الجنود الأرناءود أماكنهم وتسلقوا الصخور وأطلقوا الرصاص على المماليك المحصورين في تلك الجهة والباب مقفل في وجوههم (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، صفحة 110)، ولم يستطِع المماليك الدفاع عن أنفسهم؛ لأنهم لم يأتوا الاحتفال ببنادق ورصاص واكتفوا فقط بسيوفهم التي لم تُجْدِ نفعًا في الدفاع عنهم (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، صفحة 110).

ثانيًا: علاقة الجبرتي بالمماليك:

لم يكن للجبرتي – بوصفه أحد الأفراد المنتمين إلى طبقة العلماء والمشايخ – موقف واضح من المماليك، فكان متأرجحًا في موقفه معهم بين مدحهم تارة وذمهم تارة أخرى، وتشير المعلومات التاريخية إلى ما قد يفسر هذا الأمر، فيذكر أن هناك مصالح اقتصادية كانت تتحكم في العلاقة بين المماليك والمشايخ، وتتمثل تلك العلاقة في منح المشايخ حق بيع حصص الالتزام[3]، مما أدى إلى تبعية بعض هؤلاء المشايخ إلى المماليك الذين كانوا يتمتعون بقوة عسكرية (عيسى، 1989، صفحة 50)، ويأتي ذلك في مقابل قوة المشايخ المتمثلة في تأييد العامة لهم، ولذلك فقد نشأ صراع بين بعض المشايخ الذين يحوزون تأييد العامة وبعض المماليك بما يمتلكونه من قوة عسكرية (عيسى، 1989، صفحة 50)، وهذا ما يمكن أن يفسر موقف الجبرتي غير الواضح من المماليك.

---

[1] . باب العزب: هو باب القلعة من الجهة الغربية، وتعلوه أبراج قديمة، وهو باب ضخم غائر في الجبل، ويقع على الميدان المسمى الآن بميدان صلاح الدين، وكان يسمى في ذلك الوقت ميدان الرميلة (الرافعي، عصر محمد علي، ١٩٨٩، صفحة ١٠٨).

[2] . الأرناءود: الأرناؤوط أو الأرناؤوط: هو اسم أُطلق على من جاءوا من ألبانيا إلى مصر منذ أن وقعت مصر تحت حكم الدولة العثمانية عام ١٥١٧م، وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية، وقد انضموا للجيش العثماني وساعدوه في التخلص من الحملة الفرنسية، ثم أسهموا في مساعدة محمد علي للوصول لحكم مصر، وقد زاد عددهم في مصر وسعوا إلى الانخراط في المجتمع المصري ليس بوصفهم جنودًا عسكريين فقط، بل لكونهم أسهموا أيضًا في مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (ملوك، النشاط الاقتصادي والاجتماعي للأرناؤوط في رشيد خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ٢٠١٩، صفحة ٣) .

[3] . حصص الالتزام: يتمثل نظام الالتزام في أن يتولى عدد من ذوي النفوذ جمع الضرائب المفروضة على الأراضي من الأهالي وذلك لتسليمها إلى الحكومة، وكانت الحكومة تعرض جباية هذه الضرائب بالمزايدة لمن يتقدم لذلك من أصحاب النفوذ، فكان الملتزم يلتزم بضريبة بلد أو عدة بلاد – وهذا هو المقصود بحصص الالتزام – ويدفع للحكومة سلفًا مال سنة ثم يحصل أضعاف ما دفعه من الفلاحين (الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ١٩٢٩، صفحة ٢٩).

ويُذكر في هذا الصدد أن الجبرتي نقد الظاهرة المملوكية من داخلها ولكنه نقد لا يفضي إلى رفض الظاهرة المملوكية برمتها أو الدعوة للانقلاب عليها (عيسى، 1989، الصفحات 51- 52)، فكان أغلب المماليك حريصين على العلاقة الطيبة مع المشايخ، واتساقًا مع ذلك فقد تأثر الجبرتي بما أبداه المماليك من ود تجاه المشايخ (عيسى، 1989، صفحة 52).

ثالثًا: علاقة الجبرتي بمحمد علي:

يشوب علاقة الجبرتي بمحمد علي بعض التناقضات، وتذكر المعلومات التاريخية ما قد يسهم في محو ذلك التناقض، فالجبرتي – بوصفه أحد المنتمين لطبقة العلماء والمشايخ في ذلك العصر – رأى أن محمد علي لم يكن يحترم العلماء والمشايخ بالقدر الذي يستحقونه، مشيرًا إلى أن المماليك كانوا أكثر احترامًا للعلماء والمشايخ من محمد علي (الخليف، مصداقية الجبرتي وموضوعيته التاريخية في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 2004، صفحة 125)، ويُشار إلى أنه كان ساخطًا على محمد علي نظرًا لأنه ظلم العلماء والمشايخ الذين أعانوه على تسلم مقاليد حكم مصر (الخليف، مصداقية الجبرتي وموضوعيته التاريخية في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 2004، صفحة 124).

وما أسهم في زيادة سخط الجبرتي على محمد علي هو إلغاء الأخير لنظام الالتزام، مما أوقع الضرر بالجبرتي نفسه بسبب حيازته لبعض الالتزامات التي كان يستفيد من دخلها (الخليف، مصداقية الجبرتي وموضوعيته التاريخية في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 2004، صفحة 124)، وبذلك فإنه ألحق به ضررًا ماديًا أفرز زيادة غضبه على محمد علي.

وبالرغم من ذلك فإن الجبرتي لم يغفل الإشادة بإصلاحات محمد علي، فقد أوضح أنه حقق إنجازات كثيرة خاصة في مجال التعليم من خلال تشجيع أبناء مصر على التعليم فضلًا عن إرسال البعثات للخارج للتعلم والثقافة (الخطيب، 1978، الصفحات 39- 40)، ولكنه كان معارضًا لبعض الأخطاء والمظالم التي أعقبت إصلاحات محمد علي، فقد كان مؤيدًا للإصلاحات ذاتها ومعارضًا لبعض السياسات التي تُنفذ بها نظرًا لانعدام العدالة في أساليب تطبيقها (الأنصاري، 1988، الصفحات 32- 33).

ويُذكر أن صراحة الجبرتي في تناوله لسياسات محمد علي قد ألحقت بأسرته ضررًا بالغًا؛ ويُروى أن رجال محمد علي قتلوا ابن الجبرتي ويُدعى "خليلًا"، وذلك عقب علم محمد علي بما وجهه الجبرتي له ولسياساته من انتقادات لاذعة، فمكث الجبرتي في بيته حزينًا على فقدانه لابنه حتى توفي عام ١٨٢٥م (١٢٤١ هـ) (الخطيب، 1978، صفحة 42).

رؤية الجبرتي لمذبحة القلعة:

يطرح الجبرتي في كتابه "عجائب الآثار" حادثة من أهم الحوادث في تاريخ مصر الحديث ألا وهي مذبحة القلعة، ويصوغ طرحه لهذه الحادثة في قالب يبين رؤيته لها، فقد حملت تلك المذبحة في طياتها مواطن الصراع على السلطة في ذلك الوقت بين محمد علي والمماليك. ويمثل الجبرتي ذلك بتوظيفه

للوسائل اللغوية المختلفة، وذلك اتساقًا مع أن "اللغة ترتبط ارتباطًا أساسيًا بالسلطة وضروب الصراع على السلطة، وإن ارتباطها هذا يرجع إلى خصائصها الأيديولوجية" (فيركلف، 2016، صفحة 35)، وعلى ذلك تتناول الدراسة رؤيته لمذبحة القلعة من خلال التركيز على جانبين:

١- التعيين الخطابي للفاعلين الاجتماعيين:

يشير الجبرتي إلى الشخصيات الفاعلة التي ضمنها في سرده لمذبحة القلعة باستعمال عدة أنماط لغوية، ويُستعمَل مصطلح الفاعل في تحليل الخطاب "لتسمية مختلف المشاركين المعنيين بعمل والقائمين فيه بدور إيجابي أو سلبي" (شارودو و منغنو، 2008، صفحة 19). ويعبر التعيين الخطابي للفاعلين الاجتماعيين عن رؤية كاتب الخطاب ومقصده وذلك بوصفه اختيارًا لنمط بعينه من الصفات (عبيدي، 2016، صفحة 201)، كما يفضي إلى توجيه الرأي العام وجهة معينة مما قد يؤدي إلى تغيير مواقفه من جُل الأحداث التي يتخللها تعيين الفاعلين الاجتماعيين (عبيدي، 2016، صفحة 212). إن أهم الفاعلين الاجتماعيين الذين ورد ذكرهم في هذا الحدث هم: محمد علي، والمماليك، وعساكر محمد علي، ويمكن أن يُقسَّم تعيينه لهم إلى الآتي:

١- ١ التصنيف:

١-١-١ التصنيف الوظيفي:

في خضم إشارته إلى محمد علي فإنه يقول:

- "وكان الباشا قد بيَّت... غدر المصرية وقتلهم" (الجبرتي، 1998، صفحة 207).

يتحدث الجبرتي في المقتبس السابق عن اتفاق محمد علي مع رجاله على التخلص من المماليك، ويشير إلى محمد علي بقوله "الباشا"، وهو لقب من الألقاب التشريفية تدل على المكانة التي حظي بها، فقد استدعى شخصيته من خلال ذكر لقبه الذي ينم عن تصنيفه الوظيفي، وهذا يعكس ما ذكره ثيو فان ليفان Theo van Leeuwen من أن هناك مسارين رئيسين في تعيين الفاعلين الاجتماعيين، ويتمثل المسار الأول في التسمية Nomination؛ ويقوم على استدعاء ذكر الشخصية بإيراد اسمها الشخصي أو لقبها الرسمي أو غير الرسمي، أما المسار الثاني فهو التصنيف Categorization الذي يتضح من خلال النص على الوظيفة التي تشغلها الشخصية أو الإشارة إلى مجموعة السمات التي تتصف بها الشخصية وتجعلها منتمية إلى فئة اجتماعية بعينها (Van leeuwen, 2008, p. 40: 45). ويبرز أن الجبرتي هنا اتبع طريقة التصنيف؛ بسبب إشارته إلى وظيفة محمد علي عن طريق ذكر اللقب الذي يُلحق بمن يتولى تلك الوظيفة وهو "الباشا"، وكلمة (الباشا) كلمة فارسية مكونة من (با) بمعنى: قدم و(شا) بمعنى: ملك وهو لقب يخلعه السلطان على رجال دولته على حسب مناصبهم (دوزي، 1990، صفحة 232). وكان استدعاء الشخصيات بذكر ألقابها الرسمية التي تحدد وظيفتها أمرًا اعتياديًا في لغة العصر الذي عاش فيه

الجبرتي، فربما لا يقصد به تعظيمه، وإنما يستعملها بوصفها تقليدًا سار عليه كُتاب ذلك العصر مع من يمتلكون تلك الألقاب بأن يذكروهم باستدعائها. ومن خلال الوصل بين ما ذكرته الدراسة في جزئها النظري من غضب الجبرتي على محمد علي بسبب إلغاء نظام الالتزام وتضرره من ذلك وانتقاده لبعض سياساته فإنه يمكن التوصل إلى تأويلين؛ الأول يتحدد في أن الجبرتي أشار إلى محمد علي باستدعاء لقبه بسبب خوفه من بطشه إذا ذكره بخلاف ذلك وهو ما قد يعد تقليلًا من قدر محمد علي بوصفه الحاكم الفعلي لمصر في ذلك الوقت، وخاصة أن الجبرتي عاين بنفسه ما فعله محمد علي مع المماليك فخشي أن يلقى المصير ذاته، والثاني يتمثل في ذكر لقب الشخصية بقصد انتهاج الموضوعية وعدم إضفاء أي قيم إيجابية أو سلبية عند ذكر شخص محمد علي.

١-١-٢ التصنيف على أساس الجنسية:

يشير الجبرتي إلى المماليك وعساكر محمد علي بقوله:

- "وطلع المصرية بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم" (الجبرتي، 1998، صفحة 207).
- ويقول أيضًا: "وعندما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمراء، انبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم" (الجبرتي، 1998، صفحة 208).

يتحدث الجبرتي في المقتبس الأول عن تلبية المماليك لدعوة محمد علي لهم لحضور حفل إلباس ابنه خلعة القيادة، أما في المقتبس الثاني فيشير إلى ما فعله عساكر محمد علي عقب تأكدهم من حصول المذبحة في القلعة، ويُلاحَظ في المقتبسين أنه يستدعي ذكر المماليك بقوله: "المصرية" أو من خلال التركيب الوصفي "الأمراء المصرية"، وقد يكون ذلك من باب تصنيفهم عن باقي الفئات التي كانت موجودة في مصر في ذلك الوقت، واستعمال التصنيف هنا يحيل إلى ما ذكره ثيو فان ليفان – كما ذكرت الدراسة سابقًا – من أن اتباع طريقة التصنيف تسهم في بيان الفئة الاجتماعية التي تنحدر منها الشخصية، أو قد يكون ذلك تمييزًا لهم عن باقي الفئات العسكرية، وربما يكون التأويل الصحيح لذلك أنه أراد إضفاء شرعية على وجودهم في مصر وإمساكهم ببعض زمام الأمور فيها وذلك بوصفهم أمراء مصريين، وهنا يتبين أنه عيَّن المماليك عن طريق النص على انتمائهم للجنسية المصرية، ويُشار في ذلك الصدد أنه يمكن اللجوء إلى تعيين الفاعلين الاجتماعيين من خلال تشريح المجتمعات التي ينتمون إليها، ويكون ذلك بذكر جنسياتهم أو الخلفيات الأيديولوجية التي يتبعونها (Khosravinik, Krzyzanowski, & Wodak, p. 290).

وبالعودة إلى أصول المماليك يتضح أنهم ينقسمون إلى قسمين؛ القسم الأول وهو المماليك البحرية الذين ينحدرون من أواسط أسيا وشمالها، فعندما غزا التتار بلادهم كانوا يقعون أسرى في أيديهم أو يفرون منهم متفرقين في الأقطار فيباعون في أسواق الرقيق، وأخذ الملك الصالح نجم الدين أيوب في شراء عدد منهم من أسواق الرقيق ليكونوا حاشيته، أما القسم الثاني فهو المماليك البرجية، وأصلهم من بلاد شركس والقوقاز، ويبرز سبب تسميتهم بالبرجية في أن المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك

البحرية كلفهم بحماية القلاع والحصون وأسكنهم في الأبراج (الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، 1929، صفحة 16).

وبناءً على المعلومات السابقة يتضح أن المماليك ليسوا من أصول مصرية كي ينسبهم الجبرتي للمصريين، بل إنه يهدف من وصفهم بـ"المصرية" إلى عقد صلة لهم بالشعب المصري، فدمجهم مع المصريين لسبب أيديولوجي، ويتمثل ذلك في العلاقة الطيبة التي ربطته ببعضهم كما أوضحت الدراسة في جزئها النظري.

١-2 نزع الصفة الإنسانية:

في المقتبس السابق نفسه جاء **تعيين الجبرتي لعساكر محمد علي** على هيئة تركيب وصفي أيضًا يتجلى في قوله: "كالجراد المنتشر"، ويهدف من هذا التعيين تجريدهم من صفة الإنسانية إلى حيز اللاإنسانية، واختار وصفهم بالجراد على وجه الخصوص لأنهم كانوا ينتشرون في النواحي والحارات بحثًا عن بيوت المماليك للاستيلاء على أموالهم وكل ما لهم من متاع، ويعد استعمال لفظ "الجراد" عند الإشارة إلى عساكر محمد علي من قبيل الاستعمال المجازي، ويشير فان ليفان في هذا الصدد إلى أن الخيارات التمثيلية للفاعلين الاجتماعيين تتيح استعمال ألفاظ تدل على نزع الصفة البشرية عن الفاعلين الاجتماعيين، وأضاف أن الغرض من ذلك التمثيل المجازي الذي ينزع الصفة البشرية هو عقد صلة وثيقة بين هؤلاء الفاعلين وما يقومون به من أعمال جعلتهم يشتركون في صفة غير بشرية مع بعض الكائنات الأخرى (Van leeuwen, 2008, pp. 46- 47)، وهذا ما لجأ إليه الجبرتي بالفعل هنا عندما أشار إلى عساكر محمد علي بلفظ الجراد الذي يُوصِّف أن ما فعلوه هو الذي جعله يستدعي تلك الكلمة عند ذكرهم.

كما يتحدث عن أحد قادة المماليك قائلًا:

- "حتى أنهم ربطوا في رجلي شاهين بيك ويديه حبالًا، وسحبوه على الأرض مثل الحمار الميت" (الجبرتي، 1998، صفحة 208).

يروي الجبرتي في المقتبس السابق حدث مقتل شاهين بك في مذبحة القلعة؛ فذكر أنهم بعدما قتلوه ربطوا رجليه ويديه بالحبال وسحبوه على الأرض، ثم نعته أنهم سحبوه مثل "الحمار الميت"، وهو تركيب وصفي يصور مدى الامتهان الذي عامل به هؤلاء شاهين بك، وليس الغرض من ذلك الحط من قدر شاهين بك نفسه، فلم يراعوا حرمة الميت بل سحبوه على الأرض وهو مربوط، مما يجرده من إنسانيته إلى ما قد يعامل به الحيوان، وكل ذلك إمعانًا في إبراز سوء تعامل عساكر محمد علي مع أمراء المماليك بعد قتلهم، وإذ يختار منتج الخطاب بديلًا بعينه من عدة بدائل أتيحت له اتساقًا مع الموقف الذي يتناوله (عبيدي، 2016، صفحة 204)، فقد اختار الجبرتي الوصف السابق لأنه وجده الوصف الكافي الذي يصور ما تعرض له شاهين بك.

ويمكن أن تشير المعلومات التاريخية إلى خصوصية شخصية شاهين بك مما قد يفسر سبب معاملته بهذه الطريقة بعد قتله. فيُذكر أن محمد علي لجأ إلى استعمال الحيلة لاجتذاب المماليك من الصعيد إلى القاهرة، ومنهم شاهين بك الألفي خليفة محمد بك الألفي، وأخذ محمد علي يظهر لشاهين بك المودة والمحبة حتى جذبه إلى القاهرة، وجعل له إيراد إقليم الفيوم وعشر قرى في الجيزة، فرضي شاهين بك بهذا الصلح وأقام في القاهرة، وبعث إلى بعض زعماء المماليك في الصعيد يدعوهم إلى الولاء لمحمد علي. وبالفعل حضر المماليك إلى القاهرة وذلك عقب تهديد محمد علي لهم بتجهيز جيش لمحاربتهم إذا لم يذعنوا لأوامره، وجاء إلى القاهرة إبراهيم بك أحد زعماء المماليك، لكنه استاء من معاملة محمد علي له؛ وذلك لأنه لم تُضرب المدافع أثناء وصوله كما كان معتادًا، فقرر العودة إلى الصعيد وأقنع شاهين بك الألفي بنقض الصلح مع محمد علي والعودة معه إلى الصعيد، فوافقه شاهين بك وعاد معه إلى الصعيد، وغضب محمد علي من هذا الأمر مما جعله يجهز جيشًا لمحاربتهم، واستطاع محمد علي الانتصار عليهم، مما جعل شاهين بك يعود إلى القاهرة طالبًا العفو من محمد علي فعفا عنه، وأعطاه دارًا في الأزبكية (الرافعي، عصر محمد علي، 1989، صفحة 104: 107).

وهذه المعلومات التاريخية قد تشير إلى السبب وراء تلك المعاملة التي لقيها شاهين بك بعد قتله، فربما كان ذلك عقابًا من محمد علي على نقضه الصلح معه، فأراد أن يجعله عبرة لمن يستهين بقوته وينكث صلحًا معه.

١-3 الإفراد والجمع:

من خلال التدقيق في المقتبسات السابقة التي قدم فيها الجبرتي الشخصيات الفاعلة في مذبحة القلعة يبرز أنه لجأ إلى أحد وسائل تمثيل الفاعلين الاجتماعيين التي ذكرها ثيو فان ليفان وهو (الإفراد والجمع) (Van leeuwen, 2008, p. 37)، ويتضح الإفراد والجمع من حيث إنه وسيلة أخرى تُعيَّن وفقًا لها الشخصيات وتوضح "هل يميَّز فرد مشارك بعينه، أم يُمثل الطرف المشارك بوصفه جمعًا ملتحمًا؟" (أحمد، 2021، صفحة 44). ويأتي ذلك اتساقًا مع أن الأعراف اللغوية والاجتماعية والثقافية الموجودة في المجتمع تتيح للمتكلم أن يختار بين إمكانات كثيرة، فقد يختار أن يتحدث عن فرد وقد يختار أن يتحدث عن جماعة، وبإمكانه الاختيار بين المفرد والجمع (نحلة، 2001، صفحة 54).

فعندما أشار الجبرتي إلى محمد علي لجأ إلى الإفراد فقال: "الباشا"، ولكنه عندما ذكر المماليك استعمل الجمع فقال: "المصرية" أو "الأمراء المصريين"، ويذكر فان ليفان أن إفراد شخصية الحاكم قد يدل في الأغلب على قوته أما الإشارة إلى الشعب باستعمال الجمع فيحمل دلالة التجانس أو التوافق (Van leeuwen, 2008, p. 38)، وهذا بالفعل ما تحقق هنا عند استعمال الإفراد في استدعاء شخصية محمد علي، ولكن الجبرتي عبر عن المماليك باستخدام الجمع كي يجعلهم جميعًا بلا استثناء في مقابلة أو مواجهة مع الحاكم المتمثل في محمد علي، فهو من دبر المذبحة في مقابل أنهم ضحاياها.

لكن يجدر بالإشارة إلى أن الجبرتي خصَّ شخصيات من المماليك فذكرها بصفة فردية وليس ضمن مجموعة "المصرية"، ويتبين ذلك في قوله:

- "وأصيب شاهين بيك، وسقط إلى الأرض فقطعوا رأسه" (الجبرتي، 1998، صفحة 207).
- وأيضًا قوله: "وأما سليمان بيك البواب[1] فهرب من حلاوة الروح" (الجبرتي، 1998، صفحة 208).

إذ يتبين أنه ذكر كلًّا من شاهين بك وسليمان بك البواب من خلال النص على الاسم الشخصي واللقب، ويمكن أن يرجع ذلك إلى تأويلين؛ الأول: أنه أفردهما على وجه الخصوص تدليلًا على مكانتهما أو تعظيمًا لشأنهما موضحًا للقارئ كيف كانت نهاية هاتين الشخصيتين تحديدًا، والثاني: أن إفرادهما في مواضع معينة لم يكن إلا توثيقًا تاريخيًا لطريقة وفاتهما بوصفهما من كبار قادة المماليك. فيتضح إذن أن هؤلاء المماليك يُذكرون تارة بصفة تجمعهم في جماعة واحدة "المصرية"، وعند تفصيل حالة كلٍ منهم واختلاف طريقة موته يُذكرون بأسمائهم.

٢- التعيين الخطابي للعمليات والأحداث:

حرص الجبرتي في تعيينه لواقعة مذبحة القلعة على سردها من خلال عدة أحداث جزئية تخللت الحدث الأكبر وهو المذبحة نفسها، ويمكن من خلال انتقائه للألفاظ التي دلت على تلك الأحداث استنباط موقفه من مذبحة القلعة، فإن عملية الفعل لا تتسم بالعشوائية بأي حال من الأحوال، ولكنها تنم عن مقصد كاتب الخطاب الذي يتشكل أمام القارئ من خلال استعمالاته للأفعال (فيركلف، تحليل الخطاب (التحليل النصي في البحث الاجتماعي)، 2009، صفحة 300). ولم يقدم الجبرتي أحداث مذبحة القلعة في صورة مجردة بعيدة عن إبداء الرأي فيما يتناوله من وقائع، بل على النقيض من ذلك، إذ حرص على إيضاح الأحداث التي تخللت تلك الواقعة وما تتسم به من العنف المتعمد بحق المماليك للتخلص منهم وانفراد ساحة السلطة في مصر لمحمد علي فقط.

وتمثل مذبحة القلعة حدثًا مركبًا؛ ويقصد بالحدث المركب "أي حدث يتكون من عدة أحداث تنتظم مستقيمة الاتجاه إلا أنها تدرَك أو تُتصوَّر كحدث واحد في مستوى معين من الوصف" (دايك، 2000، صفحة 230)، ويمكن تقسيم الأحداث والعمليات الجزئية التي تخللت مذبحة القلعة على النحو التالي:

٢-١ العمليات المادية:

يشير هاليداي M. A. K. Halliday إلى أن العمليات المادية تعبر عن مقدار التغير الحاصل في مجرى الأحداث، إذ تشير إلى القيام بعمل أو وقوع حدث على أن يكون الفاعل المنطقي لهذه الأحداث هو الذي يمتلك القوة القادرة على إحداث تغيير في مجرى الأحداث (Halliday, 2014, p. 179)، وقد تعمد الجبرتي في إيراده لبعض العمليات المادية رصد تأثيرها فيمن تقع عليهم، فقد تكون العمليات المادية "تفاعلية"

[1] . سليمان بك البواب: هو أحد قادة المماليك الذين قُتِلوا في مذبحة القلعة، وكان ضخم الجسد وذا مهارة عجيبة في قيادة الخيل واستعمال السيف (ميري، صفحة من تاريخ محمد علي (مؤسس مصر الحديثة)، ٢٠١٨، صفحة ٤٦).

وذلك عند تضمنها أكثر من مشارك فضلًا عن ذكر تأثيرها الفعلي على الآخرين (فان ليفان، 2014، صفحة 327)، **فيقول الجبرتي معبرًا عن مقتل أحد قادة المماليك:**

- "وأما سليمان بيك البواب فهرب من حلاوة الروح، وصعد إلى حائط البرج الكبير، فتابعوه بالضرب حتى سقط، وقطعوا رأسه أيضًا" (الجبرتي، 1998، صفحة 208).

يتحدث الجبرتي في المقتبس السابق عن عملية مادية ألا وهي هروب سليمان بك البواب، وما دفع سليمان بك إلى الهرب هو حرصه على حياته، ويأتي تعبير "حلاوة الروح" "لتبرير الفرار أمام خطر" (شعلان، 2003، صفحة 250)، وقد يكون ذلك هو مغزى الجبرتي من ذكر هذا التعبير، وربما يكون للدلالة على أن رجال محمد علي لم يرحموا أحدًا حتى أن من هرب من حلاوة الروح تابعوه بالضرب وقطعوا رأسه.

ويقول أيضًا:

- "وهرب كثير من العسكر إلى بيت طوسون باشا، يظن الالتجاء به والاحتماء فيه، فقتلوهم" (الجبرتي، 1998، صفحة 208).

يوضح الجبرتي في قوله السابق أن بعضًا من المماليك لجئوا إلى الهرب إلى بيت طوسون باشا ظنًا منهم أنه يمكن أن يوفر لهم الحماية والأمان، وهنا تبرز فكرة الرمز، فبيت طوسون باشا كان يمثل رمزًا للأمان لمن سيحتمي به لكونه بيت ابن محمد علي، ولذلك لاذ إليه بعض المماليك متخيلين أن ذلك سيصد عنهم آلة القتل.

كما يروي طريقة هروب بعض المماليك خوفًا من القتل قائلًا:

- "وهرب كثير في ذلك اليوم وخرجوا إلى قبلي، وبعضهم تزيا بزي نساء الفلاحين، وخرج في ضمن الفلاحات اللاتي يبعن الجلة والجبنة وذهبوا في ضمنهم" (الجبرتي، 1998، صفحة 211).

يروي الجبرتي في المقتبس السابق أن بعض المماليك ممن نجوا من مذبحة القلعة هربوا إلى الصعيد، ولجئوا إلى الخروج مع الفلاحات، وصاروا يبيعون الجلة والجبن كما تفعل الفلاحات، ويتضح أنه من خلال النص على عمليتي (الهرب - والخروج ضمن الفلاحات) – وهما عمليتان ماديتان – يعبر عن مدى تخوف هؤلاء من بطش محمد علي أو من أن يكونوا تحت وطأته، فأثناء محاولتهم النجاة لجئوا إلى أفعال مادية تتعلق بموقعهم من العالم المادي رغبة في النجاة من القتل.

ويعبر الجبرتي عن عمليات النهب التي وقعت في ذلك الوقت بقوله:

- "ونهب في هذه الحادثة من الأموال والأمتعة ما لا يقدر قدره ويحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، ونهبت دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا من الأمراء المقصودين، ومن المتقيدين بخدمة الباشا" (الجبرتي، 1998، صفحة 209).

يتحدث الجبرتي في المقتبس السابق عن أعمال النهب التي طالت البيوت عقب تخلص محمد علي من المماليك، ويعبر عن ذلك بقوله: "ونُهب في هذه الحادثة ما لا يقدر قدره ويحصيه إلا الله سبحانه وتعالى"، والنهب يعد عملية مادية تعني: أخذ الشيء قهرًا (مجمع، 2004، صفحة 956)، وعلى ذلك فهو يعبر عن عدم أحقيتهم لما سلبوه. واستعمل في قوله السابق أسلوب القصر للدلالة على صعوبة إحصاء ما نُهب في ذلك الوقت من الأموال بسبب كثرته، وأداته النفي بـ(لا) والاستثناء بـ(إلا)، ويعد النفي قيمة خبراتية بوصفه الوسيلة التي تصنع التمايز بين ما هو غير واقع وما وقع فعليًا (فيركلف، اللغة والسلطة، 2016، صفحة 172)، وتعرف القيمة الخبراتية بأنها "أسلوب تمثيل النص لخبرة منتج النص بالعالم الطبيعي" (فيركلف، اللغة والسلطة، 2016، صفحة 154)، فالقارئ يعتمد في المقتبس السابق على خبرة الجبرتي بما وقع في هذه مذبحة القلعة من أعمال النهب وقد يسلم بالنتيجة التي أفضى إليها قوله؛ لأنه يستمد معلوماته مما يذكره. ويجدر الإشارة إلى أن كتاب الجبرتي هو بالفعل المصدر التاريخي الرئيس لتلك الفترة.

ويلجأ الجبرتي إلى تكرار عملية النهب في قوله: "ونُهبت في هذه الحادثة دور كثيرة..."، ويذكر من خلالها أن عساكر محمد علي نهبوا دورَ كثيرٍ من الأعيان من غير المحسوبين على المماليك بل إنهم كانوا ممن يتقيدون بخدمة محمد علي. مما قد يؤكد اتصاف هؤلاء بسمة (الغدر) التي خلعها على محمد علي ورجاله.

وعند تأمل المقتبسين السابقين يُلاحَظ أن الجبرتي لم يسند عملية النهب إلى محمد علي أو رجاله، فقد جاء الفعل "نُهب" مبنيًا للمجهول، أي لا يتحمل مسئوليته أحد، إذ يعد توظيف البناء للمجهول وسيلة من أهم الوسائل اللغوية التي تجعل الفاعل يتوارى في الخلفية دون أن يُلقى على عاتقه مسئولية القيام بعمل ما، وهذا ما تمثل هنا، فربما يكون لجوء الجبرتي إلى توظيف البناء للمجهول بسبب تخوفه من التصريح بالفاعلين لعملية (النهب) مما قد يعرضه لأذى، فقد يُفهَم من صياغته أن الذين نهبوا الدور والأموال والأمتعة قد يكونون بعض العوام، وليس الجنود.

ويمكن تأويل تعيينه لمذبحة القلعة من خلال إطلاق كلمة "الحادثة" عليها بأن يكون ذلك من قبيل استعمال ألفاظ تنتمي إلى لغة العصر الذي عاش فيه، فـ"الحادثة" تعني: النازلة (ابن منظور، 2016، صفحة 197)، ولذلك فإنه وظفها للإشارة إلى حدث سلبي دون إطلاق مسمى مذبحة القلعة عليها الذي جاء بعد وقوعها بسنوات، كما أن كلمة "الحادثة" تبدو محايدة لكونها لا تتضمن دلالة قيمية سلبية، وليس فيها إلقاء مسئولية على أحد، وذلك بخلاف "مذبحة" التي جاءت لاحقًا.

كما يقول عن أحداث المذبحة:

- "فقتل في هذه الحادثة أكثر من ألف إنسان أمراء وأجناد وكشاف ومماليك، ثم صاروا يحملون رممهم على الأخشاب، ويرمونهم عند المغسل بالرميلة، ثم يرفعونهم ويلقونهم في حفر من الأرض فوق بعضهم

البعض، لا يتميز الأمير عن غيره، وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظماء، وألقوا جماجمهم المسلوخة على الرمم في تلك الحفر، فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها" (الجبرتي، 1998، صفحة 212).

يُشكِّل الجبرتي أمام القارئ خلال قوله السابق الطريقة التي تعامل بها أتباع محمد علي مع جثث المقتولين من المماليك، ويتبين ذلك في إطار عدة عمليات مادية تقع مسئولية القيام بها على عساكر محمد علي وهي: (يحملون - يرمونهم – يرفعونهم – يلقونهم – سلخوا – ألقوا)، وهو يصور أولًا عدة عمليات جاء بعضها مترتبًا على الآخر؛ ففي البداية يحمل العساكر رمم المقتولين على الأخشاب، ثم يرمونها عند المغسل، ثم يرفعونها ويلقونها في حفر من الأرض. ويعبر في قوله: "لا يتميز الأمير عن غيره" عن عدم اكتراثهم برتبة من يُقتل، بل تساوى في القتل الأمير وما دونه. كما أتي بعملية أخرى تدلل على مقدار الوحشية التي تعامل بها هؤلاء مع جثث المماليك، فقال: "وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظماء"، وينبع من قوله نبرة استنكاره لهذا الفعل خاصة وأنه أشار إلى أن الرؤوس المسلوخة هي رؤوس العظماء، وكأنه بذلك يشير إلى أن رجال محمد علي حرصوا على إلحاق المهانة بعظماء المماليك كي لا تقوم لهم قائمة مرة أخرى. ويشير بقوله: "فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها" إلى عملية علاقية أو بالأحرى سيرورة حولها من كونها رأيه الخاص إلى ما يشبه الأمر الذي اتفق الجميع على أنهم لم يروا أشنع منه من قبل، و"أشنع" اسم تفضيل يدل على أن شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها (الحملاوي، 2000، صفحة 61)، ويقصد به الإعراب عن عدم وجود حادثة تضاهي مذبحة القلعة في شناعتها.

ويبرز أنه يقدم من خلال قوله: "فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها" تقييمه الأخلاقي لما حدث في مذبحة القلعة، ويُذكر أن التقييم الأخلاقي يتحدد في ضوء كونه "طريقة مجردة للإشارة إلى أحداث معينة تميز الحدث الذي يحمل معاني إيجابية (أو معاني سلبية في حالة عدم وجود مبرر)" (فان ليفان، 2014، صفحة 319)، فأشار من خلال تقييمه السابق إلى احتواء حدث مذبحة القلعة على قيمٍ سلبية وذلك عندما أفصح عن أنها كانت من أشنع الحوادث التي وقعت في ذلك الوقت.

أما بالنسبة للأطراف الفاعلة التي ينسب إليها الجبرتي القيام بتلك الأفعال فتتمثل في العساكر الأرناءوط الذين سبق وأن تحدثت الدراسة عنهم، فهم كانوا يسعون إلى توسيع أنشطتهم السياسية والاقتصادية، وبالطبع لن يتسنى لهم ذلك إلا بإزاحة المماليك من المشهد السياسي المصري في ذلك الوقت، ولذلك كانوا يهدفون إلى الخلاص من المماليك.

ويقول أيضًا:

- "وأصيب شاهين بيك، وسقط إلى الأرض فقطعوا رأسه، وأشاعوا به إلى الباشا ليأخذوا عليها البقشيش" (الجبرتي، 1998، صفحة 207).

يتناول الجبرتي في قوله السابق حدث مقتل شاهين بك، فذكر أنه أصيب ثم سقط على الأرض فقطع رجال محمد علي رأسه وذهبوا بها إليه، ويورد تعليل قيامهم بذلك من خلال قوله: "ليأخذوا عليها البقشيش"، ويعد (الأخذ) عملية مادية تتطلب قوة فاعلة لإحداثها، وهو يعني في الأصل: "حَوْز الشيء وَجَبْيُهُ وجَمْعُهُ" (ابن فارس، صفحة 68)، و"البقشيش" كلمة فارسية مُعربة عن كلمة البخشيش (جلال، 2008، صفحة 77)، وتعني: حلوان (دوزي، 1990، صفحة 392)، وهنا فإنه ينص على قدر الامتهان الذي تعرض له قائدة المماليك لدرجة أن الباشا كان يأمر رجاله بقطع رءوسهم والإتيان بها لأخذ الحلوان منه.

ويُلاحظ أيضًا هنا أن الجبرتي لم يذكر أن الباشا أمر بالعمليات التفصيلية الوحشية، بل أسندها إلى غيره. محمد علي فقط بيت الغدر بهم، وحُمِّل مسئولية الحدث الأكبر في مجمله، ولم يُحمَّل مسئولية تفاصيله الموصوفة بالشناعة.

فيقول:

- "وأسرف العسكر في قتل المصريين، وسلب ما عليهم من الثياب، ولم يرحموا أحدًا، وأظهروا كامن حقدهم، وضبعوا فيهم وفيمن رافقهم متجملًا معهم من أولاد الناس، وأهالي البلد الذين تزيوا بزيهم لزينة الموكب، وهم يصرخون ويستغيثون... فلم يرقوا لصارخ ولا شاكٍ ولا مستغيث" (الجبرتي، 1998، صفحة 207).

يرصد الجبرتي في المقتبس السابق تمادي عساكر محمد علي في أداء عمليات مشينة عقب مذبحة القلعة، فقاموا بعدة عمليات تندرج ضمن العمليات المادية وهي: (الإسراف في القتل - سلب الثياب...)، وأوقع هؤلاء العساكر تلك الممارسات بحق المصريين، وربما يقصد بهم أتباع المماليك من أهل البلد، وربما يشير إلى أهل البلد عامة. ويواصل سرده لممارساتهم باستعماله للعمليات الوجدانية فيقول إنهم "أظهروا كامن حقدهم"، أي أنهم كانوا يضمرون الحقد للمماليك واستغلوا تلك الفرصة لإظهار هذا الحقد، وذلك من منطلق أن (الحقد) عملية وجدانية تعني: "الانطواء على العداوة والتربص لفرصتها" (مجمع، 2004، صفحة 187)، كما أن قوله: "لم يرقوا" يندرج في إطار العمليات الوجدانية التي تبرز قسوتهم وغلظة قلوبهم، أما (الصراخ والاستغاثة) فيقعان ضمن العمليات التلفظية التي تدلل أيضًا على قسوتهم.

كما روى أنهم "ضبعوا فيهم وفيمن رافقهم"، و(ضبع) أي: "جار وظلم" (مجمع، 2004، صفحة 533)، وهي عملية مادية تبرز أن هؤلاء العساكر لم يلحقوا الأذى بالمماليك فقط بل ألحقوه فيمن رافقهم أيضًا، وهذا ينم عن مقدار القسوة التي عومل بها هؤلاء المماليك.

ويقول أيضًا:

- "ومن مات من المشاهير المعروفين، وانصرع في طريق القلعة قطعوا رأسه، وسحبوا جثته إلى باقي الجثث" (الجبرتي، 1998، صفحة 208).

يواصل الجبرتي سرده لممارسات عساكر محمد علي تجاه من يسقط قتيلًا من زعماء المماليك، فأوضح أن من يُقتل في طريق القلعة يقطعون رأسه ويسحبون جثته إلى بقية الجثث، وتأتي عملية (سحب الجثث) التي استعملها الجبرتي بوصفها عملية مادية تعني: جر الشيء على الأرض (مجمع، 2004، صفحة 418)، لتدل على مدى الوحشية التي اتسم بها عساكر محمد علي في تعاملهم مع قتلى المماليك؛ لكونها عملية تتطلب قوة لتأديتها، فضلًا عن أنها صادرة عنهم بمحض إرادتهم أو بتوجيه من السلطة الكامنة في شخص محمد علي، بالإضافة إلى تعمد إلحاق الإهانة بالمماليك من خلال جر جثث قادتهم على الأرض.

ويروي بعض ما حدث عقب مذبحة القلعة قائلًا:

- "وعندما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمراء، انبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم، طالبين النهب والغنيمة، فولجوها بغتة ونهبوها نهبًا ذريعًا، وهتكوا الحرائر والحريم، وسحبوا النساء والجواري والخوندات[1] والستات، وسلبوا ما عليهن من الحلى والجواهر والثياب، وأظهروا الكامن في نفوسهم، ولم يجدوا مانعًا ولا رادعًا، وبعضهم قبض على يد امرأة ليأخذ منها السوار، فلم يتمكن من نزعها بسرعة، فقطع يد المرأة" (الجبرتي، 1998، صفحة 208).

يروي الجبرتي هنا أن العساكر عندما علموا بوقوع مذبحة القلعة وقتل الأمراء المماليك انتشروا في بيوت زعماء المماليك ومن كان مجاورًا لهم بغرض الاستيلاء على الأموال، ويبرز قيامهم ببعض العمليات المادية التي تقع في إطار سلبي وهي: (النهب - هتك الحرائر والحريم - سحب النساء والجواري - سلب الجواهر والثياب)، ويُلاحظ أن أغلب هذه الأفعال التي سردها قد وقعت بحق نساء أمراء المماليك، فربما أراد من خلالها أن يثير حفيظة القارئ جراء تعرض هؤلاء للنساء بهذه الطريقة التي لم تحترم حرمتهن. وأوضح أن العساكر أقدموا على القيام بذلك لأنهم لم يجدوا من يردعهم أو يمنعهم عن القيام بتلك الأفعال المشينة، وكأنه يشير إلى موافقة السلطة الحاكمة المتمثلة في محمد علي على ما يفعله عساكره. ويضيف عملية أخرى تدلل على همجية هؤلاء العساكر؛ فذكر أنهم قطعوا أيدي بعض النساء لكي يأخذوا منهم السوار في حالة عدم تمكنهم من نزعها بسرعة.

٢-٢ العمليات السلوكية:

تشمل العمليات السلوكية تلك العمليات التي تعبر عن السلوك الفسيولوجي أو السلوك النفسي الصادر عن الإنسان أو ما يشبهه، وتعد هذه العمليات الأقل تميزًا بين أنواع العمليات نظرًا لأنها تتوسط العمليات المادية والعمليات الوجدانية (Halliday, 2014, p. 248). **ويرصد الجبرتي عدة عمليات سلوكية تمثل ما فعله عساكر محمد علي في أثناء مذبحة القلعة وما أعقبها من أحداث، وذلك بقوله:**

[1] . الخوندات: مفردها: خُونْد، وهي كلمة فارسية استعملت في اللغة العربية بوصفها ألقابًا وتعني: السيد والسيدة (سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، ١٩٧٩، صفحة ٩١).

- "وكثير من كبار العسكر مجاورون لهم في جميع النواحي، ويرمقون أحوالهم، ويطلعون على أكثر حركاتهم وسكناتهم، ويتداخلون فيهم ويعاشرونهم ويسامرونهم بالليل، ويظهرون لهم الصداقة والمحبة، وقلوبهم محشوَّة من الحقد عليهم والكراهة لهم بل ولجميع أبناء العرب، فلما حصلت هذه الحادثة، بادروا لتحصيل مأمولهم، وأظهروا ما كان مخفيًا في صدورهم، وخصوصًا من التشفي في النساء، فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ليتزوج بها فلا ترضى به، وتعافه وتأنف قربه، وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه وإلا هربت من بيتها، واختفت شهورًا، وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته في الحال" (الجبرتي، 1998، صفحة 209).

يتحدث الجبرتي هنا عن كبار عساكر محمد علي، موضحًا كيف كانوا يظهرون صداقتهم ومحبتهم للمماليك إلى الحد الذي جعلهم يتسامرون معهم في الليل ويتداخلون فيهم، ولكنه سجل أن هذه الصداقة الظاهرة كانت تخفي في داخلها حقدًا دفينًا على المماليك، وذلك في قوله: "وقلوبهم محشوة من الحقد عليهم والكراهة لهم بل ولجميع أبناء العرب"، ويدلل من خلال استعماله للرابط "بل" على كراهية هؤلاء العساكر للمماليك ولكل أبناء العرب؛ إذ يؤدي الرابط "بل" وظيفة الإضراب عما قبله والعدول إلى ما بعده (ابن هشام الأنصاري، 1991، صفحة 130)، وما إن حصلت مذبحة القلعة التي أطلق عليها برمتها لفظ "الحادثة" حتى تحينوا الفرصة وأظهروا ما كانوا يضمرونه للمماليك من الحقد والكراهة.

ويورد علة حقد هؤلاء العساكر على المماليك ورغبتهم في التشفي من النساء بقوله: "فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ليتزوج بها فلا ترضى به، وتعافه وتأنف قربه، وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه وإلا هربت من بيتها، واختفت شهورًا، وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته في الحال"، فكانت النساء تعاف هؤلاء العساكر ولا يقبلن بهم أزواجًا، ويصل الأمر إلى أن تلجأ المرأة لمن يحميها إذا أُجبرت على الزواج من أحدهم، وذلك بعكس المماليك الذين إذا تقدم منهم أدنى رجل ليخطب امرأة فإنها توافق في الحال، وربما يكون ذلك هو السبب في رغبتهم في التخلص من المماليك، وذلك من قبيل الشعور بأنهم أقل منهم مكانة.

ويرصد أيضًا تزيي بعض المماليك بزي النساء هروبًا من القتل بقوله:

- "وهرب كثير في ذلك اليوم وخرجوا إلى قبلي، وبعضهم تزيا بزي نساء الفلاحين، وخرج في ضمن الفلاحات اللاتي يبعن الجلة والجبنة وذهبوا في ضمنهم" (الجبرتي، 1998، صفحة 211).

يتحدث الجبرتي في المقتبس أن بعض المماليك لجئوا إلى التزيي بزي النساء خوفًا من أن يُقتلوا على يد رجال محمد علي، و(التزيي) عملية سلوكية توضح أن المماليك لجئوا إلى أفعال سلوكية تتعلق بهيئتهم، مما جعلهم يتخفون في زي النساء ليحتموا من خلاله من عيون عساكره الذين يتربصون بهم ويسعون إلى الخلاص منهم.

وفي ختام روايته للحادثة يقول:

- "وختم الله للجميع بالخير فإنه قد بلغني ممن عاينهم بالحبوس، وفي حال القتل أنهم كانوا يقرءون القرآن وينطقون بالشهادتين والاستغفار، وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى ركعتين قبل أن يرمى عنقه، ومن لم يجد ماء تيمم" (الجبرتي، 1998، صفحة 213).

يختتم الجبرتي تعيينه لحدث مذبحة القلعة في المقتبس السابق بإيراد جملة خبرية وذلك في قوله: "وختم الله للجميع بالخير"، ويقصد بـ"الجميع" هنا من قُتِل في هذه المذبحة، وهذه الجملة تبين أنه يعد أن خاتمة هؤلاء بالخير أمرًا قد تحقق بالفعل، ويعلله بأن هؤلاء قد ماتوا على طاعة الله، ثم يروي بعض ممارسات المماليك أثناء وجودهم بالحبس، وصرح بأن ذلك ورد إليه عن طريق من شاهدهم وهم في السجن، وربما يكون ذلك لكي يخلي مسئوليته عن حقيقة وقوع ذلك من عدمه، فأوضح عدة عمليات سلوكية وتلفظية قاموا بها قبل تنفيذ القتل فيهم وتتضح في الآتي: (قراءة القرآن - النطق بالشهادتين - الاستغفار - الوضوء - الصلاة - التيمم)، وربما يرمي من وراء ذلك إلى النص على ما يتسمون به من الورع حتى أن من لم يجد الماء ليتوضأ يلجأ إلى التيمم ليصلي، ويُلاحظ أنه تعمد ذكر هذه الأفعال التي قام بها بعض المماليك قبل تنفيذ القتل فيهم، وربما يكون تجاهل ذكر بعض الأفعال الأخرى التي قد تكشف خوف بعض هؤلاء المماليك قبل قتلهم، فأحيانًا يورد الخطاب أفعالًا مختلفة ويتجاهل إيراد أفعال أخرى وذلك لتحقيق أغراض مختلفة (فان ليفان، 2014، صفحة 308)، إذ تُعمق الأفعال التي ذكرها الإحساس بشجاعة هؤلاء المماليك وتجلدهم وتنفي عنهم ما يخالف ذلك.

٢-٣ العمليات الوجدانية:

تعبر العمليات الوجدانية عن تلك العمليات التي تدور في وعي الإنسان أو تمسه، وبذلك فإنها تضم العمليات العاطفية والإدراكية التي ينتجها وعي الإنسان (Halliday, 2014, p. 197). **فقد استعمل الجبرتي العمليات الوجدانية في تعبيره عن نية محمد علي في قتل المماليك، وذلك في قوله:**

- وكان الباشا قد بيت... غدر المصرية وقتلهم" (الجبرتي، 1998، صفحة 207).

يروي الجبرتي أن محمد علي عقد النية مع رجاله للقضاء على المماليك، وعين ما قام به الباشا ورجاله بأنه (غدر)، و(الغدر) يعني: نقض العهد وترك الوفاء به (ابن فارس، صفحة 413)، وتوحي هذه الكلمة بأن محمد علي ورجاله أخذوا المماليك بغتة من غير أن يكون لهم استعداد لمقابلتهم، وربما يكون الدافع وراء تعيين هذا الحدث بالغدر هو بيان خيانة محمد علي للمماليك ونقضه لما اتفق عليه معهم والإقدام على قتلهم خاصة وأنه – كما ذكرت الدراسة في جانبها النظري – أعطاهم الأمان شريطة أن يعودوا إلى القاهرة، وهنا فإنه يضع المماليك في كفة المظلومين الذين تعرضوا للغدر والقتل في مقابل كفة الباشا ورجاله التي تمثل الخيانة والغدر. ويجدر الإشارة إلى أن الأحداث قد تمثل على نحو "ديناميكي" مثل "يحلل" أو على نحو "ساكن" مثل "تحليل" (فان ليفان، 2014، صفحة 328)، وهنا طرح الجبرتي حدث

(الغدر) بصيغة ساكنة أو عن طريق التحويل الاسمي وذلك لإثبات نية محمد علي في إيقاع الغدر بالمماليك.

وقد صدَّر الجبرتي تعيينه للحدث في المقتبس السابق بكلمة "بيَّت" التي تعني: دبَّر (مجمع، 2004، صفحة 78)، وهي عملية وجدانية تبرز نية القتل والقصد والترتيب السابق لها عند محمد علي، أي أنه يُحمِّل محمد علي مسئولية الحدث أو بالأحرى يتهمه بالقتل العمد، وعلى ذلك فإنه ينفي أن تكون عملية (القتل) – بوصفها عملية مادية – وليدة اللحظة، بل إنها نتاج لتدبير سابق من محمد علي.

كما اعتمد الجبرتي على العمليات الوجدانية في رصد ما انتاب الناس من مشاعر أثناء مذبحة القلعة، وكذلك تصوير ما حل بمحمد علي ورجاله من مشاعر عقب القضاء على المماليك، فيقول:

- "وحل بالناس في بقية ذلك اليوم من الفزع والخوف، وتوقع المكروه، ما لا يوصف، لأن المماليك والأجناد تداخلوا في جميع الحارات والنواحي" (الجبرتي، 1998، الصفحات 208- 209).

يصف الجبرتي في المقتبس السابق ما حل بالناس عقب هجوم عساكر محمد علي على البيوت والحارات التي يقطن بها المماليك، ويسرد ذلك في ضوء عدة عمليات وجدانية وهي: (الفزع - الخوف - توقع المكروه)، ويعلل حدوث تلك العمليات من خلال الإشارة إلى أن المماليك كانوا متداخلين مع أهالي البلد ويسكنون الحارات والنواحي جميعها، مما أصاب الناس بالفزع والخوف وذلك من خشيتهم من أن يطولهم أي ضرر أو يلقوا المصير نفسه الذي لاقاه المماليك.

ويقول أيضًا:

- "وركب الباشا في الضحوة، ونزل من القلعة وحوله أمراؤه الكبار مشاة، وأمامه الصفاشية[1] والجاويشية[2] بزينتهم وملابسهم الفاخرة، والجميع مشاة ليس فيهم راكب سواه، وهم محدقون به، وأمامه وخلفه عدة وافرة، والفرح والسرور بقتل المصريين ونهبهم والظفر بهم طافح من وجوههم" (الجبرتي، 1998، الصفحات 209- 210).

يسرد الجبرتي في المقتبس السابق ما فعله محمد علي ورجاله عقب تخلصه من المماليك في مذبحة القلعة، فقال إن الباشا ورجاله تزينوا بأفضل ألوان الزينة والملابس الفاخرة ونزلوا من القلعة يتفقدون الناس في الشوارع، وكان الجميع مترجلًا إلا الباشا الذي كان راكبًا، وكأنه يصف هنا فرحة محمد علي وزهوه بسبب تخلصه من المماليك وتفرده بالسلطة في مصر، ويندرج تعيينه لهيئة محمد علي ورجاله أثناء مرورهم في الشوارع في إطار العمليات الوجدانية، وذلك عندما قال: "والفرح والسرور بقتل

[1] . طائفة الشغسية أو الصفاشية: هم مجموعة من الجند كانوا مخصصين لحراسة محمد علي، وكانوا من المشاة والخيالة (الرجي، تاريخ الوزير محمد علي باشا، ١٩٩٧، صفحة ١٣٦).

[2] . مفردها جاويش، وهي كلمة تركية الأصل، ونصت بعض المعاجم التركية أن هذه الكلمة وترادف الكلمتين: (سرهنك) و(دورباش) اللذين ينتميان إلى اللغة الفارسية، وكلمة (سرهنك) تعني: الفارس، أما كلمة (دورباش) فتعني: ابتعِد، وقد أطلقت هذه الكلمة على من يسعون بين يدي الحاكم ليفسحوا له الطريق، وكانوا يهتفون بكلمة (دورباش) أي: ابتعد (سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، ١٩٧٩، صفحة ٦٠).

المصريين ونهبهم والظفر بهم طافح من وجوههم"، فقد شكل من خلال قوله السابق الحالة النفسية التي انتابت هؤلاء بعد القضاء على المماليك، وينبع من تلك الحالة الشماتة والاغتباط بالانتصار على المماليك والانفراد بالحكم. ويُلاحظ هنا التباين بين العمليات الوجدانية المتحققة عند "الناس" والمتحققة عند "الباشا" ورجاله، ودور ذلك في خلق حاجز نفسي بين الفئتين.

٢-٤ العمليات التلفظية:

يرى هاليداي أن العمليات التلفظية هي تلك العمليات التي تتضح في جمل القول التي تقع في إطار سردي، فضلًا عن كونها تتيح إمكانية إنشاء المقاطع الحوارية بين الأشخاص في الخطاب (Halliday, 2014, p. 252). **فيرصد الجبرتي اجتماع محمد علي ببعض المنجمين قائلًا:**

- "وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتًا صالحًا لإلباس ابنه خلعة السفر" (الجبرتي، 1998، صفحة 206).

يتحدث الجبرتي في المقتبس السابق عن أن محمد علي بدأ بتجهيز جيش لمحاربة الوهابيين في الحجاز وذلك بأوامر من الحكومة التركية، وجعل ابنه طوسون باشا قائدًا لهذا الجيش، وأقام مهرجانًا فخمًا بالقلعة للاحتفال بإلباس ابنه خلعة القيادة وذلك في الأول من مارس ١٨١١م (١٢٢٦هـ)، وذكر الجبرتي أن محمد علي استعان في تحديد يوم إلباس ابنه خلعة القيادة بالمنجمين، وصاغ ذلك في قوله: "وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتًا صالحًا"، ويعد الطلب عملية تلفظية تعني: "ابتغاء الشيء" (ابن فارس، صفحة 417). وهذه العبارة تحوي غاية واضحة وأخرى مضمرة؛ فالواضحة تتحدد في كونه يروي استعانة محمد علي بهؤلاء المنجمين، وأما المضمرة فتكمن في الإيحاء بأن محمد علي كان دائم التواصل مع هؤلاء المنجمين ويعتاد على أخذ مشورتهم في تلك الأمور، فضلًا عن أن ذلك يضعه في دائرة من يصدقون المنجمين ويؤمنون بما يقولون، كما أن طلبه هذا يعني أنه يشغل دور المنتفِع من الفعل.

الخاتمة

وبعد أن عرضت الدراسة واقعة مذبحة القلعة كما رواها الجبرتي، فيبرز أن ذلك العرض قد أفضى إلى النتائج الآتية:

١- التزم الجبرتي في تعيينه لشخصية محمد علي بصفته الرسمية، فلم يخلع عليه أي صفات سواء إيجابية أو سلبية رغم اختلافه معه في كثير من المواقف، وقد يكون ذلك بسبب تخوفه من أن يناله مكروه جراء ذلك، ففضل ذكره بلقبه الرسمي أو التشريفي.

٢- لم يلجأ الجبرتي في تقديمه لشخصية محمد علي إلى التسمية الشخصية، بل التزم في تعيينه بتصنيفه الوظيفي من خلال لقب "الباشا"، وقد يكون ذلك تقليديًا بالنسبة إلى اللغة التي سادت في عصره، وربما يكون بسبب تخوفه من بطش محمد علي خاصة وأنه كان يبين العنف الذي انتهجه رجاله ضد المماليك.

٣- قدم الجبرتي المماليك من خلال تصنيفهم على حسب الجنسية مثبتًا انتماءهم إلى المصريين، وقد يدل ذلك على انحيازه لهم، كما قد يكشف عن منحهم شرعية الوجود على أرض مصر ونزعها ممن دونهم.

٤- برز الاستعمال المجازي أثناء تعيين الجبرتي لعساكر محمد علي، ويهدف من ذلك التعيين إلى نزع الصفة الإنسانية وإثبات اقترانهم – بسبب ما اقترفوه من أفعال – بالآفات الضارة من خلال استدعاء لفظ "الجراد" أثناء ورود ذكرهم.

٥- اعتمد الجبرتي في إشارته إلى الشخصيات الفاعلة في حدث مذبحة القلعة على الإفراد والجمع؛ فاستعمل الإفراد عند تناوله لشخصية محمد علي لأن ذلك يدلل على قوته بوصفه الحاكم، أما الجمع فوظفه أثناء استدعائه للمماليك كافة بوصفهم الطرف الذي يتنازع على السلطة في مواجهة محمد علي، ولكنه لجأ إلى الإفراد أثناء ذكر الطريقة التي قُتل بها بعض قادة المماليك بغرض التوثيق التاريخي لطريقة وفاة كلٍ منهم.

٦- يمكن القول إن الجبرتي قدم حدث مذبحة القلعة في صورة يبدو فيها وكأنه يستجلب تعاطف المتلقي مع ضحايا هذه المذبحة وهم المماليك، محاولًا ترسيخ وحشية هذه الواقعة لدى العقل الجمعي للمجتمع المصري وقتها.

٧- ألقت علاقة الجبرتي بمحمد علي وبالمماليك بظلالها على تعيينه للشخصيات والأحداث في مذبحة القلعة، واتضح ذلك جليًا من خلال إظهار عساكر محمد علي بمظهر الظالم أو الذي ارتكب جرمًا، أما المماليك فألبسهم ثوب الضحية التي تعرضت لظلم يستوجب التعاطف معها.

٨- أفرد الجبرتي في تعيينه لحدث مذبحة القلعة مساحة كبيرة للعمليات التي تتسم بالنشاط والفاعلية وخاصة العمليات المادية، ولكنه لم يستطرد كثيرًا في ذكر العمليات الوجدانية والتلفظية؛ وربما يرجع ذلك إلى رغبته في تمثيل القوة الباطشة التي استخدمها محمد علي ورجاله تجاه المماليك، وأكثر ما يصلح لبيان تلك القوة هو العمليات المادية .

٩- استطرد الجبرتي في تناوله للأحداث الجزئية التي جرت في مذبحة القلعة، وارتكز جُل اهتمامه على بيان العمليات المادية التي قام بها عساكر محمد علي؛ وذلك لكي يجعلهم من يتحملون مسئولية القيام بها وبالتالي فإن تبعاتها السلبية ستلقى على عاتقهم أيضًا.

١٠- أعرض الجبرتي في بعض الأحيان عن التصريح بالجهات الفاعلة المسئولة عن أداء بعض الأحداث التي تضمنتها مذبحة القلعة، فقد استعمل البناء للمجهول بوصفه أحد أهم الوسائل التي تجعل الجهة الفاعلة للحدث تتوارى في الخلفية ولا تتحمل مسئولية الحدث أو تبعاته، وربما يكون ذلك بسبب خشيته من أن يطاله أذى جراء ذلك. كما أنه استخدم البناء الاسمي لتحقيق الغرض ذاته.

١١- يتضح من خلال التأمل في تحديد الجبرتي للأطراف الفاعلة لبعض الأحداث أنه حمَّل محمد علي مسئولية حدث مذبحة القلعة برمته، في حين أن مسئولية التفاصيل التي تخللت ذلك الحدث تقع على عاتق رجاله.

١٢- أثبت الجبرتي من خلال تعيينه لمذبحة القلعة أن ما جرى للمماليك في ذلك الحدث لم يكن إلا محض غدر من محمد علي لهم، وكأنه يشير بذلك إلى خسة هذا الفعل الذي استغل فيه محمد علي اطمئنان المماليك له، فسرعان ما غدر بهم بدلًا من مقابلتهم في معركة وجهًا لوجه ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ويكونوا بكامل استعدادهم وعدتهم.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن) (١٩٩٨م)، *عجائب الآثار في التراجم والأخبار*، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة – مصر، دار الكتب المصرية، ج٤.

المراجع العربية والمترجمة:

أحمد، نورهان عبد الرءوف (٢٠٢١م)، التمثيل الخطابي للفاعلين الاجتماعيين (دراسة للتضافر اللفظي – المرئي في كاريكاتير يعقوب صنوع المعاصر للثورة العرابية)، كتاب المؤتمر الدولي الأول لكلية الألسن جامعة الأقصر "اللغة جسر التواصل بين الثقافات"، مكتبة أوزوريس، القاهرة، ١١-٨٨.

الأنصاري، محمد جابر (١٩٨٨م)، قراءة جديدة في تاريخ الجبرتي: معالم الخلفية الاجتماعية التاريخية لحركة النهضة العربية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج ٨، ع ٣١، ٦ – ٣٣.

جلال، إيمان السعيد (٢٠٠٨م)، *ألفاظ الحضارة في مصر بالقرن التاسع عشر (رُصدت من كتاب قلائد الفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر) لرفاعة الطهطاوي*، ط١، القاهرة – مصر، مكتبة الآداب.

الحملاوي، أحمد (٢٠٠٠م)، *شذا العرف في فن الصرف*، بيروت – لبنان، دار الفكر.

الخطيب، نشأت (١٩٧٨م)، الجبرتي والصراع الفكري في عصره، الفكر العربي، مج١، ع٣، ٢٧ – ٤٧.

الخليف، علي بن إبراهيم (٢٠٠٤م)، مصداقية الجبرتي وموضوعيته التاريخية في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، س٥، ع٩، ١٠٩ – ١٢٨.

دايك، فان (٢٠٠٠م)، *النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)*، ترجمة (عبد القادر قنيني)، الدار البيضاء – المغرب، أفريقيا الشرق.

دوزي، رينهارت (١٩٩٠م)، *تكملة المعاجم العربية*، ترجمة (محمد سليم النعيمي)، بغداد – العراق، دار الرشيد، ج١.

الرافعي، عبد الرحمن (١٩٢٩م)، *تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر*، ط١، القاهرة – مصر، مطبعة النهضة، ج١.

الرافعي، عبد الرحمن (١٩٨٩م)، *عصر محمد علي*، ط٥، القاهرة – مصر، دار المعارف.

الرجي، خليل بن أحمد (١٩٩٧م)، *تاريخ الوزير محمد علي باشا*، تحقيق: دانياك كريسيليوس وحمزة عبد العزيز بدر وحسام الدين إسماعيل، ط١، القاهرة – مصر، دار الآفاق العربية.

سليمان، أحمد السعيد (١٩٧٩م)، *تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل*،ط١، القاهرة – مصر، دار المعارف.

شارودو، باتريك ودمينيك منغنو (٢٠٠٨م)، معجم *تحليل الخطاب*، ترجمة (عبد القادر المهيري – حمادي صمود)، تونس، دار سيناترا، المركز القومي للترجمة.

الشرقاوي، محمود (١٩٥٥م)، *مصر في القرن الثامن عشر*، القاهرة – مصر، مكتبة الأنجلو المصرية.

شعلان، إبراهيم أحمد (٢٠٠٣م)، *موسوعة الأمثال الشعبية المصرية والتعبيرات السائرة*، ط١، القاهرة – مصر، دار الآفاق العربية.

الشيال، جمال الدين (١٩٥١م)، *تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي*، القاهرة – مصر، دار الفكر العربي.

عبيدي، منية (٢٠١٦م)، *التحليل النقدي للخطاب (نماذج من الخطاب الإعلامي)*، ط١، عمان – الأردن، كنوز المعرفة.

علي، أحمد عبده (١٩٩٨م)، *مقدمة تدقيق مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس*، القاهرة – مصر، دار المعارف.

عيسى، صلاح (١٩٨٩م)، الجبرتي: روح مملوكية تصارع الفرنساوية، مجلة أدب ونقد، ع٤٨، ٤٩ – ٧٠.

ابن فارس (أحمد)، معجم *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج١، ج٣، ج٤.

فان ليفان، ثيو (٢٠١٤م)، *الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي*، بحث ورد في كتاب (*مناهج التحليل النقدي للخطاب*)، ط١، تحرير: روث فوداك وميشيل ماير، ترجمة (حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد)، مراجعة وتقديم (عماد عبد اللطيف)، القاهرة – مصر، المركز القومي للترجمة.

فوداك، روث وميشيل ماير (٢٠١٤م)، *التحليل النقدي للخطاب: التاريخ والبرنامج والنظرية والمنهجية*)، بحث ورد في كتاب (*مناهج التحليل النقدي للخطاب*)، ط١، تحرير: روث فوداك وميشيل ماير، ترجمة (حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد)، مراجعة وتقديم (عماد عبد اللطيف)، القاهرة – مصر، المركز القومي للترجمة.

فيركلف، نورمان (٢٠٠٩م)، *تحليل الخطاب (التحليل النصي في البحث الاجتماعي)*، ط١، ترجمة (طلال وهبة)، لبنان – بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

فيركلف، نورمان (٢٠١٦م)، *اللغة والسلطة*، ط١، ترجمة (محمد عناني)، القاهرة – مصر، المركز القومي للترجمة.

كفافي، حسين (١٩٩٢م)، *محمد علي (رؤية لحادثة القلعة)*، القاهرة – مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مزيد، بهاء الدين محمد (٢٠١٠م)، *تبسيط التداولية (من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي)*، ط١، القاهرة – مصر، شمس للنشر والتوزيع.

المعجم الوسيط (٢٠٠٤م)، مجمع اللغة العربية، ط٤، القاهرة – مصر، مكتبة الشروق الدولية.

ملوك، فايزة محمد حسن (٢٠١٩م)، *النشاط الاقتصادي والاجتماعي للأرناؤوط في رشيد خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر*، مجلة الإنسانيات، ع٣٥.

ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي) (٢٠١٦م)، *لسان العرب*، ط١، القاهرة – مصر، دار المعارف، ج٢.

ميري، السير سارش (٢٠١٨م)، *صفحة من تاريخ محمد علي (مؤسس مصر الحديثة)*، ترجمة (سليم حسن وطه السباعي)، الجيزة – القاهرة، وكالة الصحافة العربية.

نحلة، محمود أحمد (٢٠٠١م)، *علم اللغة النظامي (مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي)*، ط٢، الإسكندرية – مصر، ملتقى الفكر.

ابن هشام الأنصاري (أبو أحمد عبد الله) (١٩٩١م)، *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت – لبنان، المكتبة العصرية، ج١.

هيئة التحرير (١٩٦٢م)، حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية، المجلة التاريخية المصرية، مج ٩ – ١٠.

English References:

Halliday, Michael (2014), *An introduction to functional grammar,* 3rd edition, Revised by Christian M.IM Matthiessen, London: Edward Arnold.

Majid Khosravinik, Michal Krzyzanowski, and Ruth Wodak, *Dynamics of Representation in Discourse*: Immigrants in the British Press.

Van Leeuwen, Theo (2008), *Discourse and practice: New tools for critical discourse analysis,* Oxford University Press.